

رحلة الرابطة إلى الهند
23 يناير - 3 فبراير 2017م
بقلم أ.د لطيفة حسين الكندري
العميد المساعد للشؤون الطلابية
كلية التربية الأساسية



مقدمة

نظمت رابطة أعضاء هيئة التدريس في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب رحلتها السياحية في عطلة الربيع إلى الهند (دلهي، جيور، أغرا). وهذه هي رحلتي الثالثة مع الرابطة حيث زرنا في سنوات ماضية أسبانيا والمغرب. دَوَّنْتُ أثناء الرحلة مذكراتي وكنت أقدمها - يوميا - لزملائي وزميلاتي ونالت استحسانهم، مما زاد من عزمي على نشر هذه المذكرات في مجلة الرابطة الغراء.

منذ الوهلة الأولى وفي مطار الكويت كان المشرفون والمشرفات على الرحلة لهم حضورهم الفاعل، ومن قبل ذلك كانت هناك جلسة تعارف ولقاء تنويري في مقر الرابطة في العدلية، وهكذا استطاع القائمون على اعداد الرحلة كسب الثقة بنجاح وادارة برنامج الرحلة منذ بداياتها اعدادا واشرافا. وعند وصولنا دلهي تم استقبالنا بالورود التي كانت تحوط أعناقنا وتزين هاماتنا وفي نهايات الطوق تتألق الورود الحمراء ذات الرائحة الزكية الفاتنة.

السوق

أول مدينة هندية زرناها هي مدينة دلهي المعروفة قديما باسم دلهي ولهذا يقولون للعلماء فلان الدهلوي نسبة لهذه المدينة، وفي طبقات الكتب قد يكتبون نسخة دلهي. دلهي مدينة عريقة تاريخيا ف عمرها يزيد عن آلاف السنين وللمدينة مكانتها المرموقة. انطلقت الرحلة بتاريخ 23 يناير وكانت أول زيارة لنا لسوق كبير Dlf promenade وبقربه أسواق أخرى وحولها

حدائق جميلة تمتاز بصنوف من الورد الندية وعدد من النوافير اللطيفة. ويحتوي السوق على ماركات عالمية وبعض المحلات الشعبية لبيع الأعشاب والأغذية المحلية وكانت محلات الملابس الهندية متميزة واستقطبت كثير من الناس وأسعارها نسبيا جيدة وخاصة الخامات الكشميرية.

وفي أول يوم وبين الحدائق ذات الأزهار الزاهية زادت الجلسات الجانبية وبدأت تتوثق العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الرحلة واتسعت مساحات التعارف والانسجام والتعاون وهذا الهدف من أهم غايات الرحلة.

قطب منار

وفي صبيحة يوم الأربعاء 25 يناير اتجهنا نحو "قطب منار" وهناك عاينا جميعا روعة العمارة الاسلامية حق المعايينة. قطب منار من عجائب دلهي تروي الآثار قصة بزوغ الحكم الاسلامي بعد انتصارات عسكرية مجيدة. وتقولنا في بقايا مسجد قطب الدين ايبك الذي تأسس في القرن السادس الهجري ويسمى الجامع باسم "قوة الإسلام". ولعل من أسباب شهرة هذا المزار أن فيه منارة شاهقة وجميلة وأيضا هناك عمود حديدي عمره ألف وستمئة سنة. وعلى مقربة من هذا المكان ثمة ضريح بنته السلطانة رضية لوالدها كما يقال ويتضمن المكان الكثير من الآيات القرآنية الكريمة مكتوبة بخطي النسخ والخط الكوفي. ويقرب المزار مدرسة قديمة لازالت بقاياها موجودة وشريح لأحد الصالحين. استقطب "قطب منار" عددا كبيرا من السائحين وهو بمثابة المتحف المفتوح؛ سقفه السماء ليحكى حكايات أقرب إلى الخيال والباحثون في حقل التاريخ يجدون فيه مجالا خصبا لدراساتهم.

مقبرة همايون

وفي نفس اليوم المزدحم بالأنشطة السياحية، وامتدادا لحرصنا على رؤية معالم العمائر الإسلامية العالمية في الهند ذهبنا إلى ضريح همايون إذ أن زوجته الحاجة حميدة بانو بيجوم بنت له مقبرة وسط حديقة ضخمة تُعد من روائع الحضارة المغولية. ففي القرن السادس عشر الميلادي قامت الزوجة

بالإشراف على مشروع الحديقة وفي وسطه قبة ضخمة وأعمدة مزخرفة. يتضمن المكان أكثر من مئة ضريح. وتحكي الروايات أن همايون كان محاربا شجاعا ومحبا للقراءة وأن زوجته كانت وفية لذكراه ومن باب الاستبشار بالجنة وضعت قبر زوجها - ولاحقا معظم أفراد العائلة- في وسط حديقة تمر بها المياه ومخططة تخطيطا رائعا حيث تم تصميمه على طراز هندسي فريد ومبتكر. لاحظنا أن كثير من الأضرحة مكتوب عليها لا اله إلا الله محمد رسول الله. أوجت حميدة بيجوم بصنيعها هذا فكرة تاج محل لاحقا.

وفي يوم الجمعة الموافق 27 يناير قضينا يوماً حافلاً بالأنشطة الممتعة. تواجدنا لتناول طعام الإفطار في السادسة صباحاً في الفندق ثم خرجنا في سياحة طويلة امتدت إلى السابعة مساءً. تجولنا في جيبور عاصمة راجستان الهندية وجبنا شوارعها وممراتها الجبلية ورأينا اللون الوردي طاغياً على المنازل فهي مدينة وردية. في هذا اليوم زرنا عدداً من الأماكن السياحية منها قلعة امبير وهي منطقة جبلية ذات مناظر خلابة وهنا ركبنا الفيلة وكانت تجربة ممتعة للغاية، وبعدها دخلنا قلعة امبير ذات الفناء الواسع، والبناء الشاهق حيث بني فوق المرتفعات ثم نزلنا عن طريق سيارات الجيب. وبعد ذلك قمنا بزيارة مرصد جانتار مانتار (Jantar Mantar) وهو مرصد قديم أنشئ في بداية القرن الثامن عشر، في الهواء الطلق يتكون من قرابه 14 محطة معمارية تحكي بدقة قياسات هندسية مقترنة بحركة الكواكب والأفلاك ودراسة الفضاء. يكشف المرصد عن الجهود الحثيثة التي بذلت قديماً لقياس الوقت حسب دوران الشمس ورصد مسارات النجوم والكواكب وتتبع حركتها على نحو مذهش. وتؤكد اليونسكو على التالي "ويُعتبر الموقع أهم وأكمل مجموعة من المراصد القديمة تمت المحافظة عليها جيداً في الهند. وهو يشهد على الكفاءات الفلكية والتصورات الكونية التي اكتسبتها حاشية أمير علامة هو ساواي جاي سينغ الثاني، وذلك في نهاية الحقبة المغولية. كما أن هذا الموقع يُعد مجالاً لتلاقي الثقافات الإسلامية والهندية فيما بين علماء الفلك والمنجمين". ينمي هذا المتحف المتميز أقصد مرصد جانتار مانتار الثقافة العلمية عموماً والثقافة الفلكية تحديداً ثم خرجنا جميعاً من المرصد بعد جولة فكرية زادتنا حبا لعلم الفلك، وتقديراً لجهود العلماء في هذا المضمار. وبعد ذلك كله ذهبنا إلى عدة متاحف منها متحف للأسلحة القديمة وتتضمن البنادق والسيوف التي على بعضها كتابات إسلامية، وزرنا متحفاً آخر يعرض ملابس الملوك في الهند ثم تجولنا في الديوان الملكي ثم قصره الفخم الفاخر - قصر المدينة - وهو قصر منيف لازال يلعب دوره السياسي. هذا ولقد زرنا أيضاً مصنعاً للسجاد

والملابس والقطع الخشبية والرخامية ذات الطابع التراثي. وهناك اطلعنا على الكثير من التفاصيل الممتعة المتعلقة بهذه الصناعة.

ومن الناحية الاجتماعية والنفسية شعرت بانسجام أكبر وراحة أكثر مع زملائنا في الرحلة. كانت أجواء المودة والمحبة ولازالت تسود صحبتنا وتنعش الأرواح وتجعل الرحلة بيئة رائعة مسكها الحرص على الصلاة والتعلم المستمر.

وزرثُ متحف الشمع في جيور حيث يتضمن شخصيات من مثل غاندي والممثل الشهير أميتاب والشاعر طاغور وهو شاعر الهند والانسانية عاشق السلام. حصل طاغور على جائزة نوبل وزار مصر والعراق وجلس مع أمير الشعراء أحمد شوقي. طاغور كاتب من الطراز الرفيع وله مواهب في الرسم ومجالات متعددة وهو واضح كلمات النشيد الوطني الهندي. آمن أن المرأة خلقت من ضلع آدم لتصبح قريبة من قلب الرجل، عزيزة عليه، ساكنة في أعماقه، رفيقة لروحه، شريكة لحياته. ويرى طاغور أن من أبرز أسباب انجازاته ونبوغه تربية أمه له. ويؤمن طاغور أن الأم هي الشاعرة الأولى لطفلها وأعظم نبع للإحساس.

ومررتُ بصالة للمرايا بقرب متحف الشمع، كل ما فيها من الزجاج، المشهد خيال في خيال، دقة في الصناعة، واحكام في العمارة وجمال في الذوق، وابداع في الفكر. شعرت بأنني في أرض الأحلام وعالم من جماليات الإضاءة. الملاحظ أن لمسات الاتساق والنظام في كل زاوية من زوايا الصالة وفي كل عمود من الأعمدة. فعلا مناظر خلابة تشرح الصدر وتبث السرور وتسرع الناظرين وتلهم المبدعين. في قصر المرايا تم توظيف الزجاج في عملية الارتقاء بالفن والعمارة الهندية التي جاءت غاية في الابداع وصهرت ثقافات عديدة لتصبح شاهدة على العيش المشترك وقدرة الانسان الفذة على التواصل الانساني...

أغرا (أكرا)

ودعنا مدينة جيور وجبالها ومتاحفها وأهلها بعد أن قضينا أياما ممتعة واتجهنا بسلام نحو مدينة أغرا في رحلة مدتها ست ساعات وأكثر تتخللها استراحات. وأثناء ذلك تحدث مرشد الباص

عن الزواج في التقاليد الهندية والعقبات والتطورات التي بدأت تزداد مع وجود الجامعات حيث صار لبعض الشباب رأيهم في اختيار شريكة الحياة. وفي الطريق قام د بدر رخيص بتقديم معلومات تاريخية ودينية مفيدة عن الهند، والأحاديث الجانبية أيضا كانت لها جاذبيتها وحضورها من حين لآخر. زاد الكرم الحاتمي في هذه الرحلة لدرجة أنني تذوقت في الباص أطعمة من بوفيه لذيذ...شاي، قهوة، مشروبات غازية، حلويات، مكسرات، تمر والسلسلة تطول. يقدم الكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب، ومقاومة الطعام من الصعوبة بمكان لا سيما في السفر وبصحبة الكرماء. وكانت المساحات الزراعية الخضراء تتسابق مع الباص وتصافح وجوهنا، وتسرع أعيننا ثم توقفنا لثلاث ساعات عند قلعة فتح بور سكري وتسمى مدينة النصر حيث بنيت في القرن السادس عشر الميلادي على يد الامبراطور جلال الدين محمد أكبر (1542-1605) أشهر أباطرة الهند المغول. كانت تجربة جديدة ومثيرة ورأينا العمارة الاسلامية وهندستها تتعانق مع العمارة الهندوسية لتشكل قصرا شامخا بحصونه، ساحرا بحدائقه وأشجاره وشرفاته. في كل عمود في القصر وفي كل ركن وكل رواق من أروقته وفي كل طابق من الطوابق الخمسة ثمة قصة ثاوية، وحكاية مروية تناقلها الناس إلى يومنا هذا بل حتى في المطبخ هناك حكاية تتحدث عن السم والطعام وزوجة أكبر؛ جودا. تجسد قصص الزوجات والجواري في القصر حالة الرخاء والرفاهية والترف في ممرات وغرف القصر وفنائه الواسع وبساتينه الجميلة. رغم أن جلال الدين أكبر كان أميا إلا أنه جمع المخطوطات النفيسة وكون لنفسه مكتبة ضخمة. والعجيب أن هذا الحاكم المغولي القوي الذي استحوذ على بلاد الهند كان محبا للفلسفة وله عناية كبيرة بسماع الحوارات والمناظرات بين الأديان وجعل من قصره - بلغة العصر - مركزا ثقافيا يشع بالتسامح بين الثقافات والشعوب فضلا عن عنايته بالموسيقى والرياضة وفنون الترويح عن النفس. انتهى الأمر بالسلطان أكبر إلى أنه وضع دينا جديدا يجمع الأديان في الهند ولم يجد لدينه أنصارا. لم ألاحظ وجود الخط الخطوط العربية على جدران المباني، ورأينا معبدا صغيرا في القصر مخصص لزوجته السلطان؛ جودا الهندوسية. وبعد هذا المشوار الثقافي المكثف وصلنا إلى مدينة أغرا على أمل زيارة تاج محل غدا.

تاج محل

الحديث عن الحب هو حديث عن الحياة الحلوة البهية فإذا اقترن الحب بالوفاء صار الحب خالدا خاليا من الشوائب هذه هي انطباعاتي عن تاج محل للوهلة الأولى. بمشاركة أكثر من ألف فيل لنقل الرخام الأبيض ولأكثر من عشرين سنة في البناء قام سلطان الهند قبل أكثر من ثلاثة قرون بالتعبير عن عميق حبه لزوجته ممتاز محل. واليوم أصبح تعبيره محط اعجاب البشرية بل من عجائب العالم والآلاف المؤلفة تيمم وجهها شطر هذه المنارة التاريخية وغدت لحنا جميلا تنشدو أغنية حلوة تحكي قصة حب وعشق بين جهان ومحبوته ممتاز لتعلم البشرية أهمية التعبير عن المشاعر الوجدانية نحو الزوجة وعموم الحياة الزوجية. التعبير عن المحبة حالة رفيعة يصل لها الفرد ويحصل عليها في نهاية المطاف إذا عرف قيمة الوفاء والاخلاص. الاتقان الجمالي في بناء تاج محل أضاف لهذا المبنى الضخم بعدا ساحرا يشد الناظرين من جهة ويسعدهم من جهة أخرى. في تاج محل تم توظيف الآيات القرآنية الخالدة على نحو فريد حيث علت سور القرآن الكريم البوابات من مثل سورة الفجر ويس مما يدل على جهد رائع للخطاطين النوابغ الذين جعلوا من المكان معلما من المعالم العالمية. الأحرف العربية متألقة شامخة تشع بالجمال وتلمع بالكمال فأصبح المكان صفحة من صفحات الكمال الإنساني.

وفي نهاية رحلتنا توجهنا للمسجد الذي زاد المزار حسنا وجمالا فصلينا الظهر والعصر وودعنا المكان الرائع بأخذ الصور التذكارية من جميع الزوايا ليكون المسجد ختام المسك، والكل يردد إن العمائر الاسلامية جمعت علوما كثيرة وبلغت الغاية في الابداع والتجويد والتميز والرقي. شاه جهان وبعد أن توفيت زوجته ممتاز أثناء الولادة ظل مخلصا لها بعد أن زايل جسدها الوجود، وظلت نبضات العشق في عروق الزوج تدفعه بثبات واصرار لتصميم تاج محل. الوفاء من شيم النبلاء وبين الزوجين قمة من قمم الرقي الإنساني.

مسرحية رومانسية

المسرح فن وذوق واحساس وحكمة وترويح عن النفس... قال شكسبير: احذر من هذا الرجل... إنه لا يحب

الفنون...أي أنه جاف الطبع. وفي هذا الصدد يقول طاغور " أنت أيها الفن، يا حاكم عقول الناس".

حضرنا في نفس اليوم الذي زرنا فيه تاج محل أمسية موسيقية تحكي قصة تاج محل وصورت المسرحية الغنائية أحداث قصة الحب الخالد بين سلطان الهند شاه جهان وزوجته ممتاز محل. استمتعنا بالعرض المسرحي الموسيقي المبهر وفي ثنايا العرض وردت العديد من الألفاظ العربية التي شكلت الارث الحضاري في الهند. كان توظيف الأذان والدعاء والصلاة والعدالة والتسامح والحب والوفاء توظيفاً جيداً في مطاوي المسرحية. ركزت المسرحية على الجهد المعماري الضخم المبذول حيث ساهم عباقرة من بقاع شتى في التخطيط والبناء بإشراف السلطان العاشق لزوجته ممتاز. كانت الزوجة الجميلة "ممتاز محل" فتاة في مقتبل العمر أحبها السلطان وساهمت في تقديم الاستشارات الحكيمة للسلطان ولديها وعي سياسي كبير. والمهم أن السلطان كان يثق بحكمتها ويأخذ بمشورتها في إدارة شئون الهند وكانت حريصة على مصالح الرعية. مرضت ممتاز محل مرضاً شديداً بعد الولادة وكانت وصيتها العناية بأولادها. نالت المسرحية الغنائية الرومانسية استحسان جميع الحضور. وتحدثنا بعد المسرحية عن درجة الوفاء عند الرجال بعد وفاة الزوجات؟! تحدثنا عن حاجة المرأة للحب والتقدير والثقة كحاجتها للماء. احترم الزوج عقل زوجته وكان يشاورها حتى في الأمور الكبيرة ويعلي من قدرها وهذا ما تريده المرأة من الرجل قبل أي أمر... لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا إذا اجتهد في البحث عن الحب وهكذا وجدت الزوجة الأمان في كنف زوجها.

مسجد جاما

خرجنا من مدينة أغرا ومنتجعاتها التي يقصدها طالب الراحة والاستجمام، واتجهنا عائدين إلى مدينة دهلي قاصدين المسجد الجامع وهو أكبر مسجد في الهند حيث يسع خمسة وعشرين ألف شخص. قام شاه جهان (1592-1666) ببناء هذا المسجد على النمط المغولي في بناء العماير ومن المعلوم أن شاه جهان هو الذي بنى تاج محل، وهو صاحب سبق وريادة لا سيما في

مجال العمارة الاسلامية. المسجد الجامع واسع الفناء وأقرب ما يكون إلى قلعة حصينة بمنارتين جميلتين. أشار الباحثون إلى أن المسجد تعرض لانتهاكات همجية من المستعمرين، وتم أيضا نهب الأوقاف وتدمير مدرسة دار البقاء. ودعنا المسجد الجامع بعد أن اكتحلت أعيننا برؤية بناء يدل على عظمة الحضارة الاسلامية وزاد اعجابنا بشاه جهان؛ ملك الدنيا. المنطقة المجاورة للمسجد منطقة مزدحمة مروريا وفيها الكثير من الأسواق الشعبية التي تجولنا فيها. وبعد ذلك اتجهنا نحو دلهي الجديدة واطلعنا على المؤسسات الرسمية ورأينا بصورة عابرة السفارات والأماكن الوطنية والمعالم التاريخية.

غاندي

وتوقفنا عند النصب التذكاري الخاص بالأب الروحي للهند: غاندي ويقع المكان في حديقة واسعة جدا والورود فيها غاية في الجمال وهي متعددة الألوان والأشكال. وفي هذه الحديقة العديد من اللوحات الرخامية باللغتين الهندية والانجليزية فيها حكم قصيرة قالها غاندي. ومن المشهور أن غاندي كان مناضلا صلبا ضد الاحتلال البريطاني واستخدم المظاهرات السلمية لتحرير الهند من البريطانيين ونجح الهنود جميعا وبعد تضحيات مهولة في مساعهم النبيل في الحصول على التحرير. من أهم معتقدات غاندي أنه لا أحد يستطيع أن يسلبك حقلك إلا إذا تنازلت عنه طواعية وأن من أبرز الخطايا المدمرة ما يلي: السياسة عندما تبتعد عن المبادئ، وكذلك العلم بدون الإنسانية والتجارة بلا أخلاق، والثروة بدون عمل، ومن مبادئه أن العبادة لا تتحقق من دون تضحية. وبذلك اهتمت التربية من منظور غاندي بالأبعاد الثلاثة؛ البعد النفسي والحركي والفكري. وارتبطت فلسفته التربوية السلمية بالواقع ومحاربة الظلم وبناء مجتمع قادر على العيش المشترك. ومن أروع عبارات غاندي أن الأحاديث النبوية الشريفة من الكنوز النفيسة ليس للمسلمين فحسب بل للبشرية جمعاء. وزرثُ عصر ذلك اليوم مدرسة من المدارس القرآنية للأطفال في دلهي؛ مسجد مولانا شوكت علي الذي توفي في الثلاثينات من القرن الماضي. وبعدها بيوم زرثُ المتحف الوطني في دلهي ورأيت طلبة الكليات والمدارس ينهلون من المعارف والفنون في أروقة المتحف.

حفل الختام

وفي نهاية رحلتنا للهند كانت حفلة ختامية رائعة من اعداد القائمين على الرحلة . تضمنت الحفلة على عدة فقرات منها: توزيع الجوائز للفائزين في المسابقة الثقافية. وكانت تعليقات أ.د. يوسف بوعباس غاية في الطرافة. ولقد ختمت الأستاذة وداد المشعل الأمسية بقصيدة مؤثرة جدا وموفقة إلى أبعد الحدود. كانت كلماتها الصادقة تصف مشاعرنا بدقة وضجت الصالة بالتصفيق فرحا واعجابا بكلمات الاستاذة وداد وبأدائها الرائع.

كل الشكر والتقدير لرابطة أعضاء هيئة التدريس في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب والشكر موصول للجنة الاجتماعية والثقافية وفريق العمل وأخص بالذكر د. يوسف العنزي ود. مريم الحسيني ود. عادل حموده فلقد ساهمت جهودهم المتميزة في نجاح الرحلة والتي حققت الهدف المنشود بفضل الله تعالى.